الفصل الخامس

صراع الطبيعة (الغاب مع المدينة)

2.2: صراع الطبيعة (الغاب مع المدينة)

الميل إلى الطبيعة لدى الرومانتيكين مرحلة حضارية جسدتها فكرة الثورة على القيود والتقاليد والظلم، وذلك منذ أن دعا (جان جاك روسو)* إلى أن يتعلم الإنسان من الطبيعة مباشرة، وليس مما اعتاده الناس من مواصفات، وفي الغالب فإنهم يتناولون من الطبيعة مناظرها الكئيبة التي تتلاءم مع أحاسيسهم كالعواصف والقمر الشاحب والليالي المظلمة، والأمواج الهائجة، والرومانتيكيون لا يحبون الطبيعة فحسب، بل يعدونها صديقة لهم تشاركهم مشاركة روحية .

حيث يلقي الشاعر الرومانتيكي بأحزانه وهمومه في أحضان الطبيعة ويبثها آلامه، ويتخذ بعضهم من الليل مستودعًا لأسراره وهمومه فهو عندهم رمز الفناء لهذا العالم الصاخب وسبيل الخلاص مما فيه من آثام ومجال للانطلاق الرحب للخيالات والأحلام، يقول (وردزورث) **: (إن الشاعر يوائم -ولابدّ- بين الإنسان و الطبيعة، فعقل الإنسان مرآة لأهم خصائص الطبيعة وأعظمها)[1].

بعدما تأثر الشعراء العرب بالمدرسة الرومانتيكية وتأثروا بشعراء الغرب، تغيرت نظرتهم إلى الطبيعة، فجاء شعرهم في الطبيعة كما جاء عند الشعراء الغربيين الرومانتيكيين راحوا ينتهجون هذا المنهج الرومانتيكي؛ فأقبلوا على الطبيعة و تعلّقوا بها و ركنوا إلى أحضانها واستشعروا حنانها وسبّحوا بجمالها وروعتها وناجوها كأمّ حانية يلتمسون العزاء، ويبثون فيها مشاعرهم وانفعالاتهم وأحزانهم ويتبادلون معها العواطف والأحاسيس ويضعون عليها ذواتًا حية وصفات إنسانية ، كما اتّخذوها ومظاهرها - شأن الرومانتيكيين الغرب- ملاذًا للسعادة الإنسانية ومغنىً للطمأنينة والراحة، وهربًا من متاعب الحياة ومشكلات الناس وقيود المجتمع، فقد أخذ شعر المهجر في الغالب تصوير المشهد الطبيعي بأدوات ذات كيان

---

* جان جاك روسو(1712-1778):هو كاتب وفيلسوف جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر العقل، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. وقد ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية، إذ أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة. (ينظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

** وردزورث (1770-1850):الشاعر الإنجليزي، أرسل لجامعة كيمبردج لإكمال تعليمه وتخرج فيها ، ومن أهم أعماله الأناشيد الغنائية وتجوّلت وحيدًا كسحابة، وفي آخر حياته حظي وردزورث بمقام الشاعر الفائز، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته بداء الرئة. (ينظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

[1] - كما ورد في الرومانتيكية والواقعية في الأدب (الأصولية الأيدولوجية)، د. حلمي مرزوق، ص40.

فني متكامل، يربط بدايتها بنهايتها بالجزئيات المستخدمة في ثنايا كل محتد تختل الصورة بالحذف أوالتعديل، فضلًا عما فيه من تجسيد للطبيعة[1].

ومن مظاهر هذه الطبيعة والذي يتكرر كثيرًا على لسانهم وتردّده أشعارهم، الغاب وهو ما نراه في أشعار بعضهم يصبح أحيانًا ذريعةً لتحطيم الثنائية والانطلاق اللامحدود، ومن ثم توصّلوا إلى جعل الغاب مقياسًا للكمال الإنساني وطلبوا إلى الإنسان أن يكون مثله إذا أراد الفكاك من القيود المصطنعة للمجتمع الذي تمنع الانطلاقَ فيه العادات والتقاليد، وإذا أراد أن يكون إنسانًا صحيحًا بمشاعره، كاملًا في أخلاقه.

الصراع على الحياة هو السبب الذي جعل الرومانتيكيين يهربون إلى الطبيعة بعيدًا عن الحياة المدينة، حيث يحيا الرومانتيكي حياة الطبيعة بعيدة عن الحياة في المدينة المصطنعة وحيث يتبع الفطرة، كرد فعل جعل الإنسان بعيدًا عن المدينة، هذا الإنسان الثائر المتمرد وحياته الجديدة لا يجب أن يلجم بالقيود والأشكال المصطنعة، و هذا التنازل عن حياة المدينة، ليس فقرًا في الحياة، فالحياة في الطبيعة لاتعرف الفقر، الفقر هو الانغلاق ضمن القيود البشرية.

يقول الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه الرومانتيكية: (ولأن الرومانتيكي يهوى العزلة والانفراد كي يجنح بخياله الواسع، دونما عائق ولا عقبة، يعمد إلى الخروج للطبيعة، حتى يفتن بها، وتعزف مظاهرها ملامح القصيدة، فالرومانتيكيون ضاقوا ذرعًا بما تضطرب به المجتمعات من حولهم، فولعوا بترك المدن إلى الطبيعة وكانت تروقهم الوحدة بين أحضانها ليخلوا إلى الذات أنفسهم)[2].

لذلك فقد نتناول العلاقة بينها -الطبيعة- وبين الإنسان من الصراع، إذ لم يتطرق الشاعر إلى تصوير المشهد الجمالي جزئيًا، وإنما قدمه من خلال حلم شعري جميل امتزجت فيه الحقيقة بالخيال مستخدمًا فنية القصة أوعنصر الحكاية. وإنّ مشاهد الطبيعة لدى الشاعر المهجري كانت مقدسة، وهذه القدسية تولدت نتيجة حياة الغربة التي عاشها بعيدًا عن أرضه وعن دياره.

---

[1] - ينظر التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص234 وما بعدها.

[2] - الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، ص169

(ولم تكن مشاهد الطبيعة لدى الشاعر المهجري إلا مرائي متعددة لشيء واحد، بينها من الوشائج، وصلات القربى مابين الأسرة الواحدة..فتقدست العشبة كما تقدست الزهرة، وبورك الخريف والذبول كما تمجد الربيع والازدهار، وعشقت هدأة الليل كما فتنت جلوة الضحى ونعمت روح الشاعر بالنسمة الوادعة كما صفت للعاصفة الراعدة.....وفضلًا عن إحساسه بوحدة الطبيعة، أحس بوحدة الموجودات فالإنسان ليس أخًا للكائنات الحية الأخرى فحسب، بل هو أخ للأشجار والأنهار وابن من أبناء الطبيعة التي تحنو عليه في أمومة رءوم، ويحس حين يستسلم لذراعيها المرحبتين، بإنه يولد من جديد، وتعود إليه طفولته الروحية وبراءته النفسية)[1].

ولقد خرج شعراء المهجر من أوطانهم العربية يحملون خصائص الشعر العربي، فلما عاشوا في العالم الجديد، وقرأوا ثمرات المفكرين فيه، واطلعوا على الشعر الغربي في مدارات تأملاته وسماته الفكرية تأثروا بذلك، وتأثروا بالبيئة الجديدة المحيطة بهم ولم يجدوا بدًّا من الاستجابة لها، وصادفتهم في المهجر أرض الله وسماؤه كما تصادف الناس في كل زمان[2].

وهذا جبران يتكلم عن الغاب بكثرة ولاسيما في قصيدة (المواكب)، فلو ألقينا نظرة عابرة في قصيدته هذه، نراهُ يتخذّ الغاب أحيانًا وسيلة لتحطيم الثنائية ورمزًا للحياة المطلقة اللامحدودة وأحيانًا رمزًا للرجوع إلى بساطة البدائية للحياة.

وفي الذهاب إلى الغاب انعتاق من الثنائية وانطلاق إلى اللامحدود، ومعانقة للمطلق، متمثلة كلها في تلك الفرحة التي تصاحبها نغمات الناي، تلك النغمات التي تتجسد فيها الوحدة الكونية كلها[3]، (وإعطاء الغاب هذا المفهوم الثوري، وعدّه عنوان الحياة الشاملة، لا الطبيعة بمعناها الضيق)[4].

لقد اقتدى جبران في نزعته الطبيعية بالمثالية الأفلاطونية منذ بداية عهده بالكتابة؛ أي أن العدالة الحقيقية وحدها تساعد على تحقيق الفرد الكامل في المجتمع الكامل.

---

[1] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 236

[2] - ينظر الشعر العربي في المهجر، د. عبدالغني محمد حسن، ص52.

[3] - ينظر الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم ، ص41.

[4] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، تقديم ميخائيل نعيمة ، مقدمة الكتاب، ص21.

فقد أراد جبران أن يحدد الغاب وطبيعة الحياة فيه، (فإذا هذا المطلق اللامحدود ينحصر في حدود صغيرة، في (ضيعة) من لبنان، في منظر طبيعي واحد، وإذا الغاب نقيض القصور، ملىء بالسواقي والصخور، يضحك فيه الفجر، وتتدلى العناقيد من أعنابه، ويصلح العشب فيه فراشًا، وإذا الغاب المجرد هو الطبيعة الجميلة)[1]:

هَلْ تخِذتَ الغــابَ مثلِي ... مَنْزِلاً دُونَ القصُـــــورْ
فَتَتبّعتَ السَّـــــواقي ... وَ تَسلّقتَ الصّخُـــــورْ؟
هَلْ جَلَسْتَ العَصرَ مثلي ... بَينَ جَفَنَاتِ الـــــعِنَبْ؟
وَالعَنَـــــاقِيدُ تَدَلّتْ ... كَثُرَيّاتِ الـــــذَّهَبْ

***

هَلْ فَرَشت العُشبَ لَيـْلاً ... وَ تلَحّفْتَ الفَضَـــــا
زَاهِدًا في ما سَيَـــأتي ... نَاسِيًا مَا قَدْ مَضَـــى؟[2]

وهذا الغاب هو الملاذ الوحيد في العالم كثير الزحام والجدل والضجيج:

لَـــــيْتَ شعري أيّ نَفْعٍ ... فِـــــي اجْتِمَاعٍ وزِحَامْ
وِجـــــــدَالٍ وَضَجيجٍ ... وَاحتِجَـــــاجٍ وَخِصَامْ؟
كُلُّهـــــــا أنْفَاقُ خُلْدٍ ... وَخيُوط الـــــعَنْكَبوتْ
فَالذي يَحيَـــــا بِعَجزٍ ... فَهو في بطءٍ يَمـــوت[3]

وهكذا يتضح (أن الغاب عند جبران، هو تلك الطبيعة التي كان يقدسها وردزورث وكولردج وبليك وثورو)[4].

ففتى الغاب، الإنسان الفطري الذي لم يفسده المجتمع، يحيا في الغاب هانئًا مطمئنًّا إلى غده في جوّ من الحب الدائم والصفاء والصحة المعنوية والحرية الكاملة:

---

[1] - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص72.
[2] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، المواكب، تقديم ميخائيل نعيمة، ص363.
[3] - السابق، ص364.
[4] - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص72.

لَيْسَ فـــــي الغاباتِ حُزْنٌ لاَ وَلا فِيهَـــــا الهمُومْ
فَـــــــــإذا هَبَّ نَسِيمٌ لَـــــمْ تجئ مَعْه السّمُومْ

***

لَيْسَ فِي الغَابَات عَـــذلٌ لاَ وَلا فِيهـــا الرَّقيبْ[1]

في هذا الجو البكر يتنشق المرءُ النسيم العذب ويصغي إلى حوار الطيور، يستحمّ بعطر ويتنشق بنور، ثم يشرب الفجر خمرًا في كؤوس من أثير ويسبّح الله المتجلي في آيات الجمال:

هَـــلْ تَحَمّمتِ بِعَطر وَتَنَشقـــــــــتِ بِنُورْ
وَشَرِبْتِ الفَجْرَ خَمْرًا فِي كؤوسٍ مِن أثيرْ[2]

في الطبيعة عدل ومساواة وعفوية وبراءة، هي تخلو من المداهنة و الرياء و الفساد ليس فيها حر ولاعبد ولاغني ولافقير؛ كما أنّ فيها إيمانها وصلاتها و معتقداتها:

لَيْسَ في الغَابَاتِ عَدْلٌ لا وَ لا فيهـــا العِقابْ
لَيْسَ في الغَابَـات حُرٌّ لا ولا العبد الذَّميـمْ[3]

(والغاب فيه المساواة التامة بالخلو من سائر المتناقضات وتنعدم فيه التفرقة حتى بين الروح والجسد، وقد انتقل من هذا المعنى المولد من انعدام التفرقة بينهما إلى القول بوحدة الوجود في السكون) عندما يقول[4]:

لَمْ أَجدْ في الغابِ فَرْقًا بَينَ نَـــفسٍ وَجَسَدْ
فالهَوا مَاءٌ تَهَـــادَى وَالنَّـــدى مَاءٌ رَكَدْ
وَالشّذا زَهرٌ تَمـــادىَ وَالثّـــرى زَهرٌ جَمَدْ
وَظِلالُ الحورِ حـــورٌ ظَـــنَّ لَيلًا فَرقَدْ[5]

---

[1] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، المواكب، تقديم ميخائيل نعيمة، ص359،354.
[2] - السابق، ص363.
[3] - السابق، ص357،355.
[4] - أدب المهجر، د. عيسى الناعوري، ص 77.
[5] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)، تقديم ميخائيل نعيمة، ص361.

إلا أن الحقيقة تنبهم أمام نسيب عريضة الذي يقول في مقدمة الكتاب، إن جبران في مواكبه لايقصد دعوة الناس للرجوع إلى الطبيعة، كما فعل مفكرو القرن الثامن عشر في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، بل دعوته إنما هي للرجوع إلى بساط الحياة، فالطبيعة موجودة في المدينة، وجدانها في كل مكان سواها، ومظاهر المدينة كلها، ماهي إلا جزء من الطبيعة، فلا نستطيع إذن أن ننكر أنها مظاهر طبيعية، وإن كانت اليوم في حالة أقرب إلى التشويش والغش والالتباس[1]، وهنا نذكر رأي الدكتور إحسان عباس و الدكتور محمد نجم: (نقول، إن وجه اللبس هنا ليس بين الطبيعة التي دعا إليها رومانتيكيو فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وبين بساطة الحياة أيّ فرق، وإذا عادت المدينة ونضت عنها أقنعة الغش وأثواب التشويش، فمعنى ذلك أنها عادت جزءًا من الطبيعة، وما الغاب عند جبران إلا الثورة على ما حدث في المدينة من تشويش وغشّ وخداع)[2].

ويقول الدكتور محمد عبدالغني حسن في كتابه الشعر العربي في المهجر: (أما جبران خليل جبران فإنه كما يقول نسيب عريضة، يرمي في مواكب إلى تأليه الغاب، ويا له من تأليه شبه بطمأنينة صافية، تشعر بها النفس المستريحة الملتجئة إلى الغاب بعد هربها من ضوضاء المدينة وسخافاتها، فالغاب عنده كتاب مقدس، كلماته تعاويذ تشفي من لذعات فلسفة الحياة، وليس الغاب عند جبران وغير جبران من شعراء المهجر رمزًا للوطن الذي نأوا عنه كما قد يتوهم متوهم، ولكنه دعوة الناس إلى الرجوع للطبيعة البسيطة الصافية التي لم تعقدها مطامع المدينة وسخافاتها)[3].

وأنا أرجح رأيهما في الأمر، وقد يكون القصد من ذكر جبران للغاب أن يثور على المجتمع عبر المادّة والضلال و الشر، فقد يكون نداء تحرر اجتماعي وسياسي وصرخة إلى العدالة والمساواة؛ لاسيما مساواة المرأة بالرجل لأن الطبيعة لاتفرق بين ذكر وأنثى.

ولكن جبران بعد أن منح الغاب قوامًا فلسفيًّا مثاليًّا، عاد فأعلن في آخر (المواكب) يأسه من تحقيقه حين قال:

العَيْشُ في الغَابِ و الأيّام لَوْ نُظِمتْ في قَبْضَتي لَـــــــغدتْ في الغابِ تَنْتَثِرُ

---

[1] - كما ورد في الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص73.
[2] - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص73.
[3] - الشعر العربي في المهجر، د. محمد عبد الغني حسن، ص56.

لَكِنْ هُوَ الدّهرُ في نَفسي لَـــهُ أرَبٌ فَكُلّمـــــــــــــا رُمتُ غَابًا قامَ يَعتَذرُ

وَللتّقاديرِ سُبلٌ لاتُغَيّرُهـــــــــــا وَالناس في عزهم عن قَصدِهِم قصرُوا[1]

وهذه الأبيات، وهي من أصدق ماجاء في (المواكب)، تدل على بعد المسافة بين الواقع والخيال؛ وتنتهي بإعلان عجز الإنسان والإيمان بالجبر، (وهي رمز انخفاض شديد، بعد ذلك التحليق الذي بلغ به خيال جبران قرص الشمس وكاد يحترق)[2].

(وهكذا أصبح جبران يجد في الغاب ملجأ فيه شخوص تحيا وحياة تدبّ، وهذا شيء جديد لم نكن نعده من قبل في الشعر العربي إلا عند القلّة النادرة جدًّا من الشعراء، وقد استوحى كل ذلك من قراءاته للأدب الغربي في لغته الأصلية)[3].

يقول الدكتور أنس داود في كتابه التجديد في الشعر المهجري: (جبران خليل جبران يمتاز -شعريًّا- بإفراده قصيدة مطولة عن الطبيعة (المواكب) يجسد فيها الطبيعة مثابة للمثل العليا، وموطنًّا للكمال الأسمى الذي يجهد الإنسان في السعي إليه)[4].

(والعودة إلى الغاب إنما عودة إلى أصل الأشياء، إذ لا التناقض بين النور والظلمة، أو بين القوة و الضعف، أو بين الكفر والإيمان، أو بين العلم والجهل، أو بين الحرية والعبودية، أو بين الفناء و الخلود، أو بين الروح والجسد، في الطبيعة لاتناقض بين الأشياء، وإنما تكامل بينها)[5].

أما الدكتورة نادرة السراج فتقول في كتابها شعراء الرابطة القلمية: (ولقد كان جبران زعيمهم ورائدهم في هذا النوع من الشعر الذي يمجد الغاب، حيث كان ملمًّا بأفكاره الفلسفية التي عرضها وعددها في (المواكب) التي تمثل في الحقيقة فترة تطور في إنتاج جبران)[6].

ولكن ليس معنى ذلك إعجاب كل النقاد بنظرة جبران، بل قد وجهت له إنتقادات عدة من عدد من النقاد من بينهم عباس محمود العقاد فقد عاب على جبران هذا الهوس الشديد بالطبيعة، فنراه يقول العقاد: (فمن قال إن الطبيعة تحلّ الإنسان من قيوده؟ ألا ليت الطبيعة

---

[1] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)، تقديم ميخائيل نعيمة، ص364.
[2] - الشعر العربي في المهجر(أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص73.
[3] - الرومنطيقية العربية، الشاذلي الفلاح، ص98.
[4] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص141.
5 - الشعر العربي الحديث، د. مراد حسن عباس، ص 105، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،2003.
[6] - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص149.

كذلك! ولكنها في الحقيقة أمّ القيود والأغلال، وما من عادة متحكمة في نفوسنا ولا غريزة غالبة أو شهوة متمكنة إلا وفي يد الطبيعة طرفاها وإليها مرجعها)[1].

ويرى الدكتور عيسى الناعوري أن: (القصيدة ذات صوتين: صوت الشيخ الخارج من المدينة، مثقلًا بهمومها وآلامها، ومستنكفًا من شرورها ونذالاتها، وصوت الفتى المرح الخارج من الغاب يعزف على نايه أنغام السعادة المطلقة، والحب المتناهي، داعيًا الناس إلى الغاب، حيث تتساوى الحياة وتنسجم، فينشأ عن تساويها وانسجامها الخير المطلق)[2].

فالطبيعة لدى جبران تاخذ ألوانًا بأختلاف إحساسنا بها، ونظرتنا إليها، فأصبح جبران وسيلة تعبر عن أحاسيسه وانفعالاته، وهو ما أدخل جبران في عداد المتميزين من أدباء العرب الرومانتيكيين، وخصوبة الخيال سمة من سمات الرومانتيكيين، ولهذا كان جبران يطلق العنان ليصطبغ المواقف والشخصيات البعيدة عن الواقع، حيث كان متأثرًا في مطولتهِ (المواكب) بالأدب الغربي قالبًا وموضوعًا[3].

وخلاصة ما هنالك أن الغاب عند جبران، هو العالم المطلوب الذي فيه الحرية والعدالة والسعادة والفضيلة، وقد أصبح الغاب بعد (المواكب) رمزًا عامًا للطبيعة في نفوس المهجريين وإن تفاوتت صورته في آثارهم، فمنهم من تأثر بفكرة جبران فنظر إلى الغاب نظرةً فلسفية، إذ جاءت اشعارهم تعبيرًا مباشرًا عن نزعتهم الفلسفية، وبعض منهم لم يتعمقوا في معنى الغاب ولم يحاولوا أن يفلسفوا نظرتهم إليه.

أما نسيب عريضة فإنه رأى في الغاب، أثناء لحظة من لحظات الصراع والشك، مجالًا للتعرّي أي التجرد من الحجب الكاذبة، وأطرح التصنع والتكلف، أو بتعبير جبران (التحمم بالعطر والتنشف بالنور):

يَا نَفس رَحمَاك أيْنَ نَمْضِي فَمَـا أمَامِي سِوَى قبُورْ
قَدْ سَامك العَقل سَومَ علُـج مَـا لاَتُطِيقينَ مِنْ أمُورْ
فَلْنَترُك الـعَقْلَ حَيْثُ يَبْغي فَلَيسَ لِلـعَقلِ مِن شعُورْ

***

[1] - الفصول، عباس محمود العقاد، ص51، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، مصر – القاهرة،2012.
[2] - أدب المهجر، د. عيسى الناعوري، ص 265.
[3] - ينظر جبران بين التمرد ومصالحة النفس، عبدالعزيز النعماني، ص21، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، مصر- القاهرة،1997.

فَصَاحَت النَفْس بِي وَقَالَتْ مَا لِي وَلِلنَاسِ وَالزِحَامْ
أصَبت يَا نَفْس فَأتَبعيني فَلَيْسَ كَالغَابِ مِن مَقَامْ
يَا غَابُ جِئناكَ (للتَعَري) أنَا وَنَفسي وَلاَ حَرَامْ

وهذا التعرّي هو الذي عبّر عنه وردزورث بقوله:

وَبلطف رَفَعت نَفسي عَنْها نقَابَها
وَوَقَفتْ عَارِية، وَقَدْ تَبَدلت ذَاتها
كَأنَها فِي حَضْرَة رَبِها[1]:

(أما أبو ماضي فكان من الذين اصابهم الهوس بالطبيعة، فقد بثها آلامه و أحزانه وما ينغص عليه حياته من شرور هذه الحياة الفانية، ويبدو من العناوين التي اختارها لدواوينه الثلاثة الأخيرة، ومن عنوانات القصائد التي كان يضعها بنفسه أنه شغوف بالطبيعة)[2]، ويظهر ذلك من خلال قراءة أهم هذه القصائد والتي نتناولها أيضًا من خلال هذا الفصل، فهو يهدّها الوحيدة التي ترى فيها السعادة و الحقيقة والجمال، يقول أبو ماضي:

عشْ للجَمَالِ تَراهُ العْين مؤتلقًا فِي أنْجم الليل أو زَهْر البَسَاتِينِ
عشْ لِلجَمَالِ تَراهُ هَهُنا وَهُنا وَعشْ لَهُ سرٌّ جدّ مَكْنُسونِ[3]

إن الطبيعة مجال رحب، هي التي تعلمه الحب الذي يخلق المساواة، والسبيل التي تمكنه من التغلب على حزنه وكآبته، يقول أبو ماضي في الطبيعة:

رَوْضٌ إذا زرتهُ كئيبًا نَفَّسَ عن قَلبِكَ الكُروبا
أَرضٌ إذا زَارَها غَريبٌ أَصبحَ عن أرضِهِ غريبا[4]

---

[1] - كما ورد في الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص76.
[2] - الرومنطيقية العربية، الفلاح الشاذلي، ص123.
[3] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (عش للجمال) ص253.
[4] - ديوان إيليا أبو ماضي، تقديم زهير ميرزا، من قصيدة (قصيدة الطبيعة) ص183.

(لقد وقف إيليا أبو ماضي في العالم الجديد أمام الحيوان والطير والنبات وآثار الإنسان الصناعية، فنقل إلينا إحساسه بما رأى، وشعوره بما أثارته فيه هذه المشاهد من المعاني، وقد وقف إيليا أبو ماضي بـ فلوريدا)[1] فوصفها قائلًا:

يـــــا جَنّةٌ قبلما حَلّت بِها قَدَمِـي ... أَحـبَبْتَها قصّة واشْتَقتُ رَاويها
سئُلتُ مَا رَاق نَفْسِي مِن مَحاسِنِهـا؟ ... فَقُـلْتُ لِلنَاس: بَادِيهَا وَخَافِيهَـا
وَما حببتَ من الأشجار؟ قلت لـهم: ... إنـي افتتنتُ بكاسيها وعاريهـا
وَما هَويتَ مِنَ الأزْهَار؟ قُـلتُ لَهم: ... الحـبُّ عِندي لِنامِيها وَ ذاوِيهـا
قَالوا: وَمَا تَتَمنّى؟ قُلْتُ مُبتـــدِرًا: ... يَا لَيْتَني طَائرٌ أو زهرةٌ فيهـا[2]

وقد اتخذ أبو ماضي هذا الاتجاه، في فترة من فترات حياته، ديدنًا له ودينًا، ونظن أنه فعل ذلك فيما يمكن أن نسميه عهد القلب، ففي ذلك العهد، جعل الغاب شبيهًا بعالم الأفلاطونية، وعدّه رمز الخير والحب والجمال والتضحية، ونصح الإنسان أن يتشبه بالطبيعة في صورها العديدة، من تراب ونهر وغدير ونجم، وعلى الجملة نبذ دين الإنسان الذي يمن ويزهو إذا قدم لقمة للجائع[3]:

تَتْلمَذتُ للإنسانِ فِي الدَّهرِ حِقبَةً ... فَـــــلَقنْي غَيًّا وَعَلّمني جَهْلا
نَهَانِيَ عَنْ قَتل النّفوسِ وَعِندما ... رَأى غَـرّة مِنّي تَعلّم بِي القَتْلاَ!
وَذَّم إليَّ الرَقّ ثـــــمَ استَرقّنِي ... وَصوّرَ ظلمًا فِيهِ تَمْجِيدهِ عَدلا[4]

واختار دين الطبيعة عندما رآه قائمًا على الإيثار والتضحية:

وَشَاهدتُ كَيفَ النهر يَبذل مـــاءه ... فَـــــــــلا يَبْتغي شكرًا ولايدّعي فضلًا
وَكَيف يَزين الطلّ وردًا وعوسجًا ... وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا [5]

---

[1] - الشعر العربي في المهجر، د. محمد عبدالغني حسن، ص53
[2] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (فلوريدا)، ص415.
[3] - ينظر الشعر العربي في المهجر(أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص76.
[4] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (كتابي)، ص291.
[5] - السابق، ص290.

لقد أجمل وردزورث ولم يبيّن لنا كيف تكون الطبيعة هاديًا للبشر، وجاء أبو ماضي يسهب بالتفصيل والتوضيح، ويشرح لنا كيف تُعلمنا الطبيعة الحبَ الذي يخلق المساواة بين كل شيء في الكون، ولكن أبا ماضي لم يستطع أن يقترب من فلسفة الطفولة عند وردزورث.

ولعل الغاب هو المستراد والمسرح الذي وجد فيه شعراء المهجر جمال الطبيعة في فطرتها، وصفائها ومساواتها التامة بين الأحياء، فهذا ابو ماضي يصور لنا (الغابة المفقودة)[1]:

للهِ فِـــــي الغَــابَةِ أيّامُنا	مَا عَابَها إلاَّ تَلاشِيهـــــا
طَوْرًا عَلينـــا ظِلّ أدْوَاحِها	وَتَارة عَطفُ دَوَالِيهـــــا
وَتَارةً نَلهُو بِأعنَابِهـــــا	وَتَارَةً نحْصِي أقَاحِيهـــــا
تَسَكتُ إذْ نَشْكُو شَحَارِيــرُهَا	كَأنّما التَغريدُ يُؤذِيهـــــا
وَإنْ تَضاحَكْنا سَمِعْنا الصَدَى	يضحكُ مَعنا فِي أقَاصِيهـــا
وَإنْ مَشَيْنـا فَوقَ كُثبَانِهَـــا	لاَحَتْ فَشاقَتْنَا أدَانِيهـــــا
وَفوقنا الأغْصَانُ مَـــعقودةٌ	ذَوائب طَـــــــال تَدليّها
إذا هَزَزْنَاها عَلى غَـــــرّةٍ	ألـــــقتْ مِنَ الذَعرِ لآلِيهـا
نَسيرُ مِن كَهْفٍ إلى جَـــدولٍ	نَــكتشفُ الأرضَ وَغَطويها
والنُـورُ عطرٌ فِي تَعَاريجهـا	وَالعطرُ نُورٌ فِي حَوَاشِيها[2]

(وإن الطبيعة سرقت الأضواء من المدينة وجذبت القلوب لما فيها من مواصفات اجتماعية يسمها التكلف وترسم حدودها المنافع والأغراض الشحصية، بالإضافة إلى وجودها سدًا أمام انطلاقات الخيال وانفساحات التأمل)[3]..وأبو ماضي في قصيدته (في القفر) يقول في بدايتها مقررًا هذه الحقيقة:

سَئمتْ نَفْسيَ الحياة مع النـــا	س وَمَلّت حَتى مِنَ الأحْبَـــابِ
وَتَمشَت فِيها الملالةَ حَـــــتى	ضَجَرت مِن طَعَامِهْم وَالشَرابِ
وَمِنَ الكَذْبِ لابسًا بُرْدَة الصدقْ،	وَهَـــــــذا مُسربِلًا بالكِذابِ

[1] - ينظر الشعربي في المهجر، د. محمد عبدالغني حسن، ص53.
[2] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الغابة المفقودة)، ص370.
[3] - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص 328.

ومن القبح فِي نِقابٍ جَميل وَمِن الحُسْن تَحْتَ ألفِ نِقابِ

وَمِن العَابِدينِ كُـــــلَّ إلهٍ وَمِن الكَـــــافرينِ بِالأرْبَابِ

وَمِن الوَاقِفِينِ كَالأنْصَــاب وَمِنَ السَــاجدينَ للأنْصَابِ[1]

(فهو يستمد كل معاني حياته وصور وجوده من الطبيعة، ويرى فيها جنة يلوذ بها حينما تلفحه شمس الحياة القاسية المليئة بالملق والخداع و الزيف)[2]، ويشكو من النفاق الذي أصبح سمة لعصره، وجعله يمل كل من حوله من الناس حتى الأحباب والأصحاب، وساءته الأوضاع المقلوبة في هذا العالم الخادع حيث الكذب يسمى صدقًا والصدق يختفي تحته الكذب، حيث يدعى القبيح جميلًا[3].

ويهزأ بقيم المدينة الزائفة، ويهتك براقعها القبيحة ويصفها قائلًا:

صَغُرت حِكْمَة الشِيُوخ لَدَيْها واستَخفّت بِكُل مَا لِلشَباب[4]

(عالم مثالي آخر خال من القيود حتى ولو كان الأمر متعلقًا بالافتضاح في الهوى، ولامداراة، من أجل هذا يدعو (إيليا أبو ماضي) محبوبته إلى الغاب ليمارس الهوى)[5] حيث يقول:

تَعَالي إنّ رَبَّ الحُبِ يَدعونا إلى الــغابِ

لِـكَي يَمزجنـــا كَالمَـــاءِ وَالخَمْرة فِي كَاسِ

وَيَغْدو النُورَ جَلبَابكِ فِي الغَابِ وَجَلبابي

فَكَمْ نَصْغِي إلى النَّاسِ، وَنَعْصِي خَالقَ الناسِ[6]

ندرك من هذه المناجاة أن الطبيعة تحولت عنده إلى كائن حيّ يتصارع فيه الحزن والفرح، والسعادة والشقاء، إنها الحقيقة المطلقة، التي تُمّحى فيها المتناقضات، وهي العالم الذي تتحقق فيه السعادة والطهارة والجمال والخير العميم:

---

[1] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (في القفر)، ص48.
[2] - حركة التجديد الشعري في المهجر، عبدالحكيم بلبع، ص 288.
[3] - ينظر شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص153.
[4] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (في القفر)، ص49.
[5] - أدب المهجر، د. عيسى الناعوري، ص94.
[6] - ديوان إيليا أبو ماضي، تقديم زهير ميرزا، من قصيدة (تعالي)، ص498.

وَشَاهَدتُ كَيْفَ النَهرُ يَبذلُ مَاءَهُ فَلا يَبْتَغي شكرًا وَلايَدّعي فضلا

وَكَيفَ تُغذّي الأرض الأم نَبتها وأقبحه شكلًا كَأحسَنه شكْلا [1]

وكانت فلسفة أبي ماضي في تلك الفترة تدور على الحب وعلاقته بالطبيعة أو الغاب:

أصــغِي إلى صَوْت الجَداول جَارياتٍ في السفوحْ

وَاسْتَنشقي الأزْهَارَ فِي الجنّاتِ مَادَامت تــــفوحْ

وَتَمَتَعِي بِالشُهبِ فِي الأفْلاك مَا دَامَت تَـــــلوحْ

مِن قَبْل أنْ يَأتي زَمان كَالضَباب أوْ الدُخَـــــانْ

لاتَبصرِين بِه الغَدِير

وَلايَلذُّ لَكِ الحَرير[2]

(من هذا الميل يولد الحب و الطبيعة في أقنوم واحد، لابدّ من أنه يمثل عهد القلب في حياة الشاعر، وظل أبو ماضي في هذا الدور العاطفي ينادي: المحبة....المحبة...إنها هي بنت الطبيعة، ويمجد الغاب ويعنف الإنسان)[3].

وكان يولي وجهه شطر الغاب بذلك حدثته نفسه فأطلع رغبتها، وفي صحبتها قضى وقتًا جميلًا، في جوار الغدران والأعشاب:

تَـــارَةً في مَلاءة مِن شُعاعٍ تَـــــــارةً فِي ملاءةٍ مِن ضَبَاب

تَارةً كَالنَسيم تَمْرح فِي الوَا دي، وَطَورًا كَالجَدول المَنْسَاب[4]

(ومعنى ذلك، أن الرجل الذي سئم الناس، كيّف حياته حتى أصبحت كالطبيعة، وحتى كاد يتمثل مظاهرها من شعاع ونسيم وجدول)[5].

إلا أنه بعد فترة تغيرت وجهة نظر ابي ماضي تجاه الغاب إذ عاد إلى الشك والحيرة، يقول في قصيدته الطلاسم:

---

[1] - الخمائل، إيليا أبو ماضي من قصيدة (كتابي)، ص294.

[2] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (المساء)، ص61،60.

[3] - الشعر العربي في المهجر(أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص79.

[4] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (في القفر)، ص51.

[5] - الشعر العربي في المهجر، د. إحسان عباس، د. محمد نجم، ص82 وما بعدها.

قَدْ رَأيتُ الشُهب لاتَدرِي لِمَاذا تَشرقُ

وَرَأيتُ السُحبَ لاتَدرِي لِـــماذا تَغدقُ

وَرأيتُ الغابَ لاتَدري لِمَـــــاذا تُورقُ

فَلِماذا كُلها فِي الجَهلِ مثلي؟.....

لَسْتُ أدري[1]

ثم دخل إيليا أبو ماضي إلى فترة العقل إذ عليه سلط العقل وبدأ يثور على الكل، إلا أننا سنكتفي بهذا القدر من دراسة إيليا أبو ماضي في هذا الفصل.

ولو نظرنا إلى ميخائيل نعيمة لوجدناه يقف على (النهر المتجمد) (فتوحى إليه الوقفة بمعانٍ نفسية يعقد فيها الشاعر موازنة بين النهر وقلبه الذي كان ضاحكًا مثل المروج ولكن جمد فيه الأمواج كما جمدت النهر)[2]، وكان الشاعر يأسى لمأساة الشعب الروسي، ويحس بوطأة القيصرية، على أنفاسه، ويرى جموح الفلاحين والعمال منسحقة تحت أهوال النظام الإقطاعي...فرأى في تجمد النهر رمزًا لتجمد الحياة الإنسانية في روسيا[3] :

يَا نهرُ ..هَلْ نَضبَت مياهُك فانقطعتَ عن الخَريرْ؟
أمْ قَد هَرِمت وَخار عَزمُك فَانثنيتَ عَن المَسير؟
بِالأمس كُنتَ مرنِّمًا بين الحَدائِق و الزهُـــورْ
تَتلو عَلى الدنِيا وَما فِيها أحَاديثَ الدّهـــــــور
بالأمسِ كُنتَ تَسير لاتَخشى المَوانعَ في الطّريقْ
وَاليومَ قَد هَبطَتْ عليكَ سَكينةُ اللحد العميقْ
بالأمسِ كنت إذا أتيتك بَاكِيًا سَلَّيْتَني
واليومَ صرتَ إذا أتيتك ضَاحِكًا أبكيتني
بِالأمسِ كنتَ إذا سمعتَ تَنهّدي وتوجّعي
تَبكي. وَها أبكي أنا وَحْدي، وَلا تَبكي معي

---

[1] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الطلاسم)، ص170.
[2] - الشعر العربي في المهجر، د. محمد حسن عبدالغني، ص54.
[3] - ينظر الطبيعة في شعر المهجر، د. أنس داود، ص51.

هَا حَولك الصفصاف لا وَرَقٌ عَليهِ ولاجَمال
يَجثو كَئيبًا كُلّما مَرَّت بِهِ ريحُ الشَّمال

***

وَالحَورُ يَندُبُ فَوقَ رَأسك ناثرًا أغصانهُ
لايَسرح الحسّونُ فِيه مردّدًا ألحانهُ

***

وَكأنّها بنَعيبها عند الصّباح وفي المساءْ
جوقٌ تشيع جسمك الصافي إلى دار البقاء

***

فتساوت الأيام فيه: صباحها ومساؤها
وتوازنت فيه الحياة: نعيمها وشقاؤها

***

يَا نَهر ذَا قَلبي، أَرَاهُ، كَمَا أرَاكَ مكْبَلا
وَالفَرق أنّك سَوْفَ تَنْشط مِن عقالك...
وَهُوَ ....لاَ[1]

واختتم القصيدة كما يقول: (اختممت القصيدة بخطاب أوجهه إلى روسيا فأسألها وقد كبلها الجليد مثلما كبل (صولا) متى يأتي ربيعها و يفكها من عقال الجليد؟ وهل يأتي زمان يتذوق فيه العامل والفلاح شيئًا من الفرح والسعادة؟... ولم يكن يدور في خلدي أن سؤالي سيلقى جوابه بعد سبع سنوات، وأن الحكم في روسيا سينتقل من أيدي القيصر والأشرف والإقطاعيين ورجال الدين إلى أيدي العمال والفلاحين)[2].

إن هذه النزعة الاعتزالية عند شعراء المهجر بالرجوع إلى الغاب هي رد فعل للصدمة التي صادفوها أول هجرتهم إلى عالم هائج مائج، يعج بضجيج الحياة وصخب العيش، بعد ذلك الهدوء الذي كانوا غارقين فيه في أرض الوطن، وقد أختصر نعيمة الطريق الشاقة فاثر العودة إلى لبنان يلتمس الهدوء والسكينة بين مزرعة الشخروب وبسكنتا، وترك

[1] - همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص8-11.
[2] - سبعون حكاية عمر1889-1959، ميخائيل نعيمة، المرحلة الأولى 1889-1911، ص258،257.

إخوانه الشعراء في المهجر ينفخون في ناياتهم مع أصداء النغم الباقية من مواكب جبران، ويرددون مع فتى الغاب[1] قوله:

لَيْسَ فِي الغَابَاتِ حزن لاَ، وَلاَ فِيها الهمُوم[2]

(مما يدل على أنه كان مشحون النفس بالغضب على أعداء الحياة في روسيا، وأن منظر النهر في تجمده قد أثاره وآلمه من ناحية، وأنه كان من ناحية أخرى قد تفاعل مع الحياة الروسية، وامتزج حب الشعب الروسي والأسى على أحوال فلاحيه وعماله، بشغاف قلبه...وقد ترجم هذه القصيدة إلى العربية فيما بعد)[3].

ولأن هذا مبلغ إحساسه بالطبيعة ومدى تعاطفه مع مظاهرها (فلا غرو أن نجد لديه مجتلى الأفراح، وطلاقة النفس، وبهجة الطفولة)[4]، كما عبر عن ذلك في قصيدته (صدى الأجراس):

قُــولُوا لِرفَاقِي يَجْتَمِعُوا
فَــالشَّمْسُ رُوَيْدًا تَرْتَفِـعُ،
وَالــيَوم العِيدُ وَرَبّ العِيد
يُنَــــادِينا، أَوَ مَا سَمَعوا؟
دِنْ. دِنْ. دِنْ. دِنْ!

***

هُوَذا قَـــــد أقبَلَ أتْرَابي
أَهلًا، أهـــلًا بأصِيحَابِي!
النّـاسُ تَسير إلى القدّاسِ
وَنَحْنُ نكرّ إلى الـــــغابِ
دِنْ. دِنْ! دِنْ. دِنْ!
أشجارُ الغَابِ تُحيّينـــــا
وَطيورُ الغَابِ تُنَاجِينـــا

---

[1] - ينظر الشعر العربي في المهجر، د. محمد عبدالغني حسن، ص 56.
[2] - الأعمال الكاملة جبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)، ميخائيل نعيمة، ص354
[3] - الطبيعة في شعر المهجر، د. أنس داود، ص52.
[4] - السابق، ص38.

وَزهورُ الغَـــابِ تُصَافِحُنـا
وَنُصَافحهُا، وَتـــهنّينـــا
دِنْ. دِنْ! دِنْ. دِنْ!

***

الرّيحُ تَمرّ بِنـــا خَبَبـــا
فَيَميس الحَورُ لَها طَرَبـــا
وَالشَمسُ بِلطفٍ تَلثم أوجُهَنـا
وَتَذرّ لَنَـــا ذَهَبـــا ذَهَبـــا
أَغصانُ الـــــغَاب تُلاعِبُنا
وَهَوام الـــــغَاب يُداعبُنـــا
وصخُـــــورُ الوَادي تَدْعُونا
وَصَدى الأجْـــــراسِ يُعَاتبُنا
دِنْ. دِنْ! دِنْ. دِنْ!
هَا هُمْ أترَابِي قَد سَـــرَحوا
فِي الغَابِ يَقودهمُ الـــمرحُ
وَبَقيتُ أنَا وَحْدِي سَكرانـــا
يَرقصُ فِي قَلبي الـــــفَرحُ
فَجَلَسْتُ عَلى كَتْف الـــنّهرِ
مَا بَيْنَ العَوسَج والـــزَهرِ
العَالَم مَمْلَكَتي، وَأنَـــــا
سُلطان العَالم والـــدَّهرِ[1]

فهذه القصيدة تعبر عن اندماج الشاعر في الطبيعة، ففي كل لمسة من لمساتها إحساس بالتعاطف التام، ومبادلة لألوان من الحب والحنان والرعاية، فأشجار الغاب وطيوره وزهوره تحييه وتصافحه، والشمس بكل حنان ورقة تلثم وجهه وتنثر بين يديه أشعتها الذهبية، وأغصان الغاب تنبض فيها الإحساس البشري، تمس رأسه ملاعبة وتدوم حوله

[1] - همس الجفون، من قصيدة (صدى الأجراس)، ميخائيل نعيمة، ص40-42.

مداعبة، ثم تختفي به الصخور، وترسل إليه دعوة ليسعدها بخطرة فوق أديمها، أو بنظرة والهة من قلبه الشاعر؛ في حين أن صدى الأجراس يرسل عتابًا، وحين يذهب الشاعر إلى النهر سكران الروح راقص القلب يحس بأن النهر يمنحه أمومة فياضة بالحنان، وأن الشاعر يرجع أمامه إلى طفولته البريئة فيجلس على كتف النهر، وحين يحس بأن نفسه تشتمل على العالم؛ بما في كل ذلك من أبعاد شعورية وفلسفية- في نظرة شاعر كنعيمة- يطلقها صيحة طفولية عفوية صادقة[1].

(فالغاب هنا ملجأ الشاعر الهارب من زيف الطقوس الدينية، وهنا الأندماج الكامل في الطبيعة، فالأغصان تلاعب الشاعر فهم أطفال بشرية، وحتى الهوام تداعب ويضفى عليها الشاعر طلاً خفيفًا..)[2].

(فميخائيل نعيمة لديه إحساس رهيف بالطبيعة، وألفة بمظاهرها، وتعبير رقيق عن عاطفة الحب الإنساني، واستكشاف ولاصطراع الخير والشر الإنساني في نفسهِ، وتأمل في بداية الإنسان ونهايته)[3].

وكثيرًا ما اندمج نعيمة مع الطبيعة حتى ذاب فيها ذوبانًا كاملًا، كان يشعر بأن الطبيعة جزء من كيانه ،ووجوده جزء من كيان الطبيعة، ويحس بأن نفسه تتخلل الطبيعة، (والطبيعة تتخلل نفسه...حيث يلتحم مع نفسه بمظاهر الطبيعة التحامًا كاملًا، فيخاطب نفسه ويسألها)[4] يقول :

مَنْ أنــتَ يَا نَفْسِي

إنْ رأيتِ البحرَ يطغى الــــموجُ فيه وَيثورْ

أو سَمعتِ البَحرَ يَبكي عندَ أقدام الصخـورْ

تَرقبي المَوجَ إلى أنْ يَحبسَ المَوجُ هديرَه

وَتُناجي البَحْرَ حَتى يَسمَعَ الــــبَحرُ زَفيرَه

رَاجعـــــــــًا منكِ إليْهِ

---

[1] - ينظر الطبيعة في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 41،40.
[2] - أدب المهجر، د. صابر عبد الدايم، ص 420.
[3] - السابق، ص141.
[4] - السابق، ص415.

هَلْ من الأمواج جئتِ؟[1]

ففي هذه القصيدة قدم ميخائيل نعيمة نموذجًا جيدًا على أن الشاعر لم تستهوه مظاهر الطبيعة و مفاتنها استهواء جماليًّا يقف منه الحس عند حدود ما يدركه، ويستطيع الإحاطة به من ألوان وصور، (وإنما لك تجاوز ذلك إلى نوبة من الاستغراق والتأمل يرى فيها نفسه كائنات في كل شيء يحيط به)[2].

(وقد كان شعر المهجر الجنوبي يندمج فيه الشاعر مع الطبيعة ويشعر بها ويخيل إليه أنها تشعر به، ويحادثه وبحادثها ويتصور أنها ستر عليه، ويربط بين موقف من حياته ووضع هي عليه ويصفه لها، ويتصور أنها تقدر مشاعره، وتشعر بآلامه، وتحنو عليه، ويبثها شكواه. وكان اتجاههم نحو الاندماج في الطبيعة ، وكان هذا بفعل الحياة، ونتيجة للتأثر بالأدب الأوروبي والرومانتيكي بصفة خاصة)[3].

وكان الشاعر يحس بأنه أخ للأشجار والأنهار والوديان وابن من أبناء الطبيعة يسترخي بين ذراعيها فيشعر بأنه ولد من جديد، فتعود إليه طفولته التي يحلم بها، يقول القروي في قصيدته (الولادة الجديدة) :

إذَا الشَمسُ يَا أُم لاَحَتْ هَتفـــت هُتاف الغَريبِ رَأى المَوطِنا
وَقبَلت غَرتها بِالبنـــــــــان وَطَـوقَتْ بِالساعدين السِنا
كَذلك كُنتَ أَمدُ يـَـــــــــدي إلى النَارِ طفلًا ...أطفلٌ أنَا؟
وإذ يَكفهّر جَبين السَمـــــــاءِ وَتسكَب أَجْفَانِها الدَمْع طَلاَّ
وَتَنشر فَوقَ الرءُوس المـظَلاَت لَمْ أرض غَير السَحابَة ظَلا
كَذا كنتُ أعشقُ خَوضَ الجَداول طفلًا، فَهَلْ عُدتَ يَا أم طفلًا

***

فَأسْمَعني الطيرُ عِندَ الصَبـــاحِ جَــوابَ الـطبيعةِ لِي تَنْشد
بُني !وَلدتك طفلًا جديـــــــدًا فَقُلْ للـــــرِفاق الإلى تَعهد

---

[1] - همس الجفون، ميخائيل نعيمة، من قصيدة (من أنت يا نفسي)، ص14.
[2] - حركة التجديد الشعري في المهجر، د. عبدالحكيم بلبع، ص285.
[3] - العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص155.

لَقَدْ مَلأ الأرض أولادَكـــــم وأنتم إلى الآن لَمْ تُولدوا[1]

(والغاب ماهو سوى الطبيعة الخالصة التي لاذ بها الشعراء هربًا من واقعهم النفسي في مهجرهم، فيقول القروي في قصيدته (الربيع الأخير) الذي يسعى إلى الغاب ويجد في ظلاله بردًا وسلامًا)[2]:

هَيا إلى الغَاب أنِي قَد بَنَيتَ لَنَـــا مِن الرِيَـــاحين عَشا لينا عَطرا
لاَتَأمَلي مِن جوَار النَاسِ منفعـــة فَلنَبتعد عَن حَمـاهم نَأمن الضَررا
لَمْ يَعمروا مِن بِقاعِ الأرضِ غامرة إلا وَقد غَمروا بِالبَشر مَا عَمرا[3]

وكم أحزنه فعل الإنسان المغرور الذي جاء إلى الطبيعة وقطع أشجارها بمنشاره وكأنه يقتل الجمال من أجل منافعه لذلك تخاطبه هذه الأشجار المقطوعة مؤكدة له أنها ستبقى مصدرًا للمنافع حتى بعد موتها :

قَدْ عشتَ أكثَر مِنكَ فِي مَوْتي وَمَوتِي لا يَضِير
قَد كُنْتَ مَأوى للطيور، فَصرت جسرًا للعبور
وَعَمود نُور يُستَضَاءُ بِـــه، وَعَكاز الضَرير[4]

وفي قصيدته (عناق الوجود) يبتدئ إحساسه بوحدة الوجود من خلال تعبيره عن تلك الرغبة التي تلح عليه، وتستبد بنفسه، وهي رغبة في غمر الكون:

مَن لِنفسٍ تَودُّ لَـــــوْ تَغمُرُ الكونَ هُيامـــًا بِحُسنـهِ المَعْبودِ
مَثّلوا لِي هذا الوجودَ بشيءٍ أَنـــــا لا أَستطيع ضَمَّ الـوجودِ

***

تَطلُعُ الشَمسُ يستبيني بَهاها وَتَلوحُ النجـــومُ أرعى سَناها
أيُّ وادٍ ولم أسامرْ حصـــاهُ وَهضابٍ وَلـــــــم أُباكر ذراها
وَغصُون وَلَمْ أُغرِّد عَليهـــا وورودٍ وَما رشـــــفت جَناها

---

[1] - ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (الولادة الجديدة)، ص514.
[2] - ملامح الشعر المهجري، د. عمر الدقاق، ص108.
[3] - ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (الربيع الأخير)، ص649.
[4] - السابق، ص516.

غَيرَ أني عُمري قصيرٌ وَفي الكونِ فنونٌ مِن كلِّ حسنٍ جديدِ
مَثلوا لِي هَذا الوجودَ بشيءٍ إنَنّي أشتهي عَنـــاقَ الوجودِ[1]

فهذه الطبيعة التي كثيرًا ما تمناها شعراء المهجر جميعًا خالدة باقية، ظاهرة، نقية، مثالية لأبعد درجات المثالية، ليتحقق فيها كل ما لم يمكن تحققه في الحياة، قد أطلق الشعراء على هذه الطبيعة اسم (الغاب) وكثيرًا ما حنوا إلى هذا الغاب المثالي المفقود، وكثيرًا ما رغبوا في الانطلاق إليه، وهجر العالم والحياة وما فيها من متاع وزينة إلى الراحة والهدوء والاستقرار والطمأنينة في هذا الغاب المثالي الذي صنعه خيالهم، وقد وصفه فرحات بقوله:

أحْن إلى الغَابِ حَيث الشرُور هُنالِكَ نيرَانُها خَـــــــامِدة
أحْن إلى حَيْثُ لاَيَجلس الـغَدْر قُربَ الوَفَاءِ إلى مَـــــــائدة
أحْن إلى حَيْثُ لاَ الـــمُنكرات تَعيش وَلاَ الأَعين الحَاسِدَة[2]

وبهذا تكون الطبيعة قد أدت دورًا مهمًّا في شعر المهجر، وأيًّا كانت الاتجاهات التي اتجهها الشعراء في تصويرهم لها، فهي ترجع في النهاية إلى حبهم لها وولعهم الشديد بها وبوطنهم الأم في المقام الأول.

(ولاغرو أن يضيقوا بالحياة في المدينة، وبما في المدينة من أوضاع اجتماعية، يسمها التكلف، وترسم حدودها المنافع والأغراض الشخصية...بالإضافة إلى وجودها سدًّا أمام انطلاقات الخيال وانفساحات التأمل..)[3]

(وكان شعراء المهجر يستخدمون (الغاب) رمزًا لما ينشدونه ويحلمون به من عالم مثالي تمناه جبران وكذلك أبو ماضي، ومن المحتمل أنهم كانوا يرمزون بهذا إلى بلادهم الجميلة التي نزحوا عنها راغمين، فظلت تمثل في وجدانهم الجنة الوارفة التي يحلمون بالعودة إليها والاستمتاع بالحياة الكريمة بين ربوعها)[4].

وكان للطبيعة أثر في المهجر الجنوبي أيضًا، إذ إن حب الطبيعة عندهم لم يقتصر فقط على طبيعة الوطن بل على الطبيعة في بلاد أمريكا اللاتينية كلها، وذلك لأن شعراء الشمال

---

[1] - ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (عناق الوجود)، ص712،713.
[2] - كما ورد في العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص156،157.
[3] - الطبيعة في شعر المهجر، د. أنس داود، ص54.
[4] - حركة التجديد الشعري في المهجر، د. عبد الحكيم بلبع، ص290.

أحاطت بهم الحضارة والمدنية والمصانع والآلات والأضواء الكهربائية من كل جانب، لذا كثيرًا ما حنوا إلى الغاب المفقود، (أما شعراء المهجر الجنوبي فقد عاشوا في بيئة زراعية لاتختلف كثيراً عن وطنهم ووجدوا فيها الأنهار والأشجار والطيور وما إلى ذلك، فظلت صورة الطبيعة واضحة جلية أمام أعينهم، لذا فإننا نجد حنينهم إلى الغاب المثالي كما في مواكب جبران مثلًا ليس بالكثرة والإتساع الموجودين عند شعراء المهجر الشمالي)[1].

لذلك نرى أن هؤلاء الشعراء قد ضاقوا ذرعًا بحياة المدينة التي تتسم بالتكلف والتصنع لتحقيق الأغراض والمنافع الشخصية، ولاذوا إلى الطبيعة حيث الحياة الفطرية البسيطة التي كانوا يتوقون إليها وهم بعيدون عن أوطانهم؛ لذلك جاء شعرهم صورة صادقة لما يعتمل بداخلهم من مشاعر وأحاسيس فيّاضة بالحنين والشوق إلى قراهم ومدارج طفولتهم. ونجد مشابهة بينهم و بين كثير من الرومانتيكيين الأوروبيين منذ أن ابتدأها جان جاك ورسو دعوة حارة إلى نبذ قيود المدينة، والعودة إلى الحياة الصادقة الحرة في ظلال الطبيعة[2].

(وهكذا نجد عندهم من وراء الحديث عن الغاب، نوعًا من السعي إلى الخلود عن طريق الفلسفة الروحانية المعتمدة على البساطة والعيش والاتخاد بنغمات الكون الأزلية، وقد حملوا على الحياة المدنية، وتمردوا على حياة الآلة، ودعوا إلى حياة الغاب، والطبيعة، حياة الفطر والبساطة)[3].

(وموقف شعراء المهجر من الطبيعة يستند إلى سببين:

أولًا: تأثرهم العميق بالنزعة الرومانتيكية والروحية وبخاصة لدى وليام بليك و جون بنيان، اللذين كانا يمثلان قمة هذا الاتجاه.

ثانيًا: نفورهم الشديد من ضجيج الحياة المادية وعدم قدرتهم على التلاؤم الكامل معها، واعتقادهم أن تلك الحياة المعقدة هي التي طمست صفاء النفس البشرية، وغللتها بأغلال الشر والجشع والأنانية، فكانت الطبيعة بصفائها هي الصورة المقابلة لتلك الحياة القائمة التي يشقى بها بنو الإنسان)[4].

---

[1] - العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص155.
[2] - ينظر الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، ص92.
[3] - دراسات في الشعر العربي الحديث، د. شوقي ضيف، ص294.
[4] - حركة التجديد الشعري في المهجر، د. عبدالحكيم بلبع، ص282.

وخلاصة القول، أن الغاب عند المهجريين، قد يكون مرادفًا للمطلق اللامحدود، ولكن في أغلب أحواله يشير إلى الطبيعة التي مجدها الرومانتيكيون في القرن المنصرم، فالغاب نقيض للمدينة و شرائعها وقوانينها ومصانعها؛ والعودة إلى الغاب عودة إلى البدائية والبساطة، وفي الغاب الجمال، وفيه الحب والتضحية، وأقصى ما تصوره المهجريون من أمر الغاب، أنه معلم فاضل؛ وتفاوتوا في الأخذ به والثورة عليه، تبعًا لتغيير الأحوال النفسية.